



تسود قراءاتان مختلفتان في تفسير ما حدث في سوريا خلال الأسبوع الماضي، بدءاً بإسقاط الطائرة الروسية في إدلب، مروراً بمذبحة العناصر المئة في دير الزور، وربما ليس انتهاءً بإسقاط الطائرة الإسرائيلية، يوم السبت.

وينقسم المراقبون في فريقين رئيسيين، يعتقد الأول أن التطورات الأخيرة تعبير عن احتدام الصراع بين محورين، روسي - تركي - إيراني من جهة، وأمريكي - أوروبي - إسرائيلي - عربي، من جهة أخرى. فيما يعتقد الفريق الثاني، أن الجانب النوعي مما حدث ينحصر في التحرش الإيراني بالأمركيين والإسرائيليين، بغية إثبات الوجود، وتأكيد الحقوق المكتسبة بالدم، على الرقعة السورية، وسط مخاوف من الوصول إلى اتفاق روسي - أمريكي، يقضي بإخراجهم من تلك الرقعة، أو تحجيمهم فيها.

وأياً كانت القراءة الأدق، فإن احتمالات خلط الأوراق، وتغيير قواعد اللعبة في سوريا، بين المتصارعين الإقليميين والدوليين على رقعتها، واردٌ بشدة.

تستند القراءة الأولى أساساً إلى حادثة إسقاط الطائرة الروسية، في إدلب، قبل أيام. حادثة لم تنجح في تلغيم العلاقات الروسية - التركية. وكان ذلك التلغيم، الهدف الرئيس لهذه الحادثة. فمن زود الفصيل الذي استهدف الطائرة، بالصاروخ الذي تمكن من إسقاطها، كان يريد، على الأغلب، إشعال نيران الشكوك بين الشركين الروسي والتركي. لكن القيادة التركية

تمكنـت من إقناع نظيرتها في موسـكو، بخلاف ذلك. وقامت تركـيا بإـجراءات حـسن نـية تجـاه الروـس، أـبرـزـها تـسـليم جـثـة الطـيـار الروـسي القـتـيل، وـمن ثـم لـاحـقاً، السـماـح بـدخـول لـجـنة عـسـكرـية روـسـية، بـرعاـية تركـية، إـلـى مـكـان سـقـوط الطـائـرة، لـمعـاـيـنة حـطـام الطـائـرة، وـالـصـارـوخ الـذـي اـسـتـهـدـفـها، بـغـيـة التـعـرـف عـلـى مـصـدـرـهـ، وـالـجـهـة الـتـي أـرـسـلـتـهـ.

باـختـصار، يـبـدو أـن إـسـقـاط الطـائـرة الروـسـية، الـذـي يـُعـنـى أـن الـأـمـريـكـيـن وـقـفـوا وـرـاءـهـ، جـاء بـنـتـائـج عـكـسـيـة، خـلـافـاً لـرـغـبـات الـأـمـريـكـيـن. فالـشـراـكـة الروـسـية - التـرـكـية - الإـيـرـانـية، تـعـزـزـتـ. وـاتـفـقـ الشـرـكـاءـ الـثـلـاثـةـ عـلـى لـقـاءـ قـرـيبـ، وـعـلـى لـجـمـ خـلـافـاتـهـ، خـاصـةـ عـلـى الـمـحـورـ الإـيـرـانـي - التـرـكـيـ، تـحـديـداًـ، عـلـى تـخـومـ إـدـلـبـ. وـكـانـ منـ نـتـائـجـ ذـلـكـ، توـسـعـ نـقـاطـ المـراـقبـةـ التـرـكـيـةـ، لـتـصـلـ قـرـبـ سـرـاقـبـ، الـتـيـ كـانـتـ مـهـدـدـةـ قـبـلـ أـيـامـ بـالـسـقـوطـ، جـرـاءـ الـقـصـفـ، وـتـقـدـمـ الـمـيلـيشـيـاتـ الـمـوـالـيـةـ لـلـنـظـامـ، وـالـمـدـعـوـةـ إـيـرـانـيـاـ. أـيـضاًـ، عـادـتـ الطـائـراتـ التـرـكـيةـ لـتـحـلـقـ فـوـقـ أـجـوـاءـ عـفـرـينـ، وـتـسـتـهـدـفـهاـ، بـعـدـ تـوـقـفـ دـامـ بـضـعـةـ أـيـامـ، عـلـى خـلـفـيـةـ إـسـقـاطـ الطـائـرةـ الروـسـيةـ.

حسبـ هـذـهـ القرـاءـةـ، قـرـرـ الـمـحـورـ الروـسـيـ - الإـيـرـانـيـ - التـرـكـيـ، الرـدـ فيـ دـيرـ الزـورـ. وـاستـهـدـفـ منـشـأـةـ لـ"ـقـوـاتـ سـورـياـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ"ـ، المـدـعـوـةـ أـمـريـكـيـاـ. منـشـأـةـ كـانـتـ تـضـمـ مـسـتـشـارـيـنـ عـسـكـرـيـنـ أـمـريـكـيـنـ، حـسـبـماـ كـُـشـفـ لـاحـقاًـ. لـكـنـ الرـدـ الـأـمـريـكـيـ كـانـ سـرـيـعاًـ وـصـارـماًـ، حـيـثـ أـبـادـتـ الطـائـراتـ الـأـمـريـكـيـةـ، مـاـ يـقـارـبـ 100ـ عـنـصـرـ مـنـ الـمـيلـيشـيـاتـ المـدـعـوـةـ إـيـرـانـيـاـ.

فـانـتـقـلـ رـدـ الـمـحـورـ الـثـلـاثـيـ إـلـىـ الـجـنـوبـ. وـأـسـقـطـتـ الـمـنـظـومـةـ الـدـافـعـيـةـ السـوـرـيـةـ، الـمـدـعـمـةـ روـسـيـاـ، وـالـمـدـارـدـةـ إـيـرـانـيـاـ، لـأـولـ مـرـةـ، طـائـرةـ إـسـرـائـيلـيـةـ. بـعـدـ أـنـ كـانـتـ إـيـرـانـ، فـيـ مـاـ يـبـدوـ، قـدـ أـرـسـلـتـ طـائـرةـ بـلـ طـيـارـ إـلـىـ أـجـوـاءـ الـجـوـلـانـ الـمـحـتـلـ، فـيـ خـطـوـةـ مـشـابـهـةـ لـلـهـجـومـ الـغـرـيـبـ الـذـيـ طـالـ قـاعـدـةـ حـمـيـمـ الـرـوـسـيـةـ، قـبـلـ أـسـابـيعـ. وـتـمـكـنـتـ إـسـرـائـيلـ مـنـ إـفـشـالـ عـمـلـيـةـ الـاـخـتـرـاقـ لـأـجـوـائـهـ، لـكـنـهـاـ فـيـ الـوـقـتـ نـفـسـهـ، تـلـقـتـ صـفـعـةـ قـاسـيـةـ، وـغـيـرـ مـعـتـادـةـ، إـذـ لـمـ تـكـنـ مـنـظـومـةـ الـدـافـعـ الـسـوـرـيـةـ مـلـجـومـةـ عـنـ طـائـراتـهـ، كـالـعـادـةـ.

هـذـهـ القرـاءـةـ، إـنـ صـحـتـ، تـفـتـحـ الـبـابـ عـلـىـ مـصـرـاعـيـهـ نـحـوـ حـرـبـ شـرـسـةـ، قـدـ تـنـتـقـلـ مـنـ حـالـةـ "ـالـوـكـالـةـ"ـ، إـلـىـ الـحـالـةـ "ـالـمـبـاـشـرـةـ"ـ. وـفـيـ هـذـاـ الـصـرـاعـ، لـنـ يـكـونـ السـوـرـيـونـ، كـأـدـوـاتـ وـمـسـتـهـدـفـيـنـ، وـحـدـهـمـ الـضـحـاـيـاـ. بـلـ سـتـكـونـ الـأـطـرـافـ الرـئـيـسـيـةـ مـسـتـهـدـفـةـ فـيـ مـصـالـحـاـ الـحـيـوـيـةـ، وـرـبـماـ فـيـ أـمـنـ حـدـودـهاـ الـمـبـاـشـرـ، فـيـ حـالـةـ إـسـرـائـيلـ.

الـقـرـاءـةـ السـابـقـةـ، تـقـابـلـهاـ قـرـاءـةـ أـخـرـىـ، تـقـلـلـ مـنـ خـطـوـرـةـ مـاـ حـدـثـ، وـتـحـصـرـ التـوـعـيـ مـنـهـ بـالـجـانـبـ الإـيـرـانـيـ، فـقـطـ. وـبـعـيـداًـ عـنـ حـادـثـ إـسـقـاطـ الطـائـرةـ الروـسـيـةـ، الـتـيـ لـاـ يـظـهـرـ لـهـاـ تـفـسـيرـ، فـيـ هـذـهـ القرـاءـةـ، يـبـدوـ الإـيـرـانـيـونـ وـحـدـهـمـ، أـصـحـابـ الـمـصـلـحـةـ، وـالـمـسـؤـولـيـنـ عـنـ الـهـجـمـاتـ فـيـ دـيرـ الزـورـ، وـعـلـىـ إـسـرـائـيلـيـنـ، جـنـوبـ الـبـلـادـ.

وـحـسـبـ هـذـهـ القرـاءـةـ، يـبـدوـ أـنـ الـرـوـسـ عـاجـزـونـ عـنـ لـجـمـ الإـيـرـانـيـنـ، وـغـيـرـ رـاضـيـنـ عـنـ تـرـشـهـمـ الـجـرـيـءـ بـالـأـمـريـكـيـنـ فـيـ دـيرـ الزـورـ، وـبـإـسـرـائـيلـيـنـ فـيـ جـنـوبـ الـبـلـادـ. فـيـماـ يـوـحـيـ الإـيـرـانـيـونـ لـلـجـمـيـعـ، بـأـنـهـمـ مـسـتـعـدـونـ لـلـذـهـابـ إـلـىـ مـوـاجـهـةـ شـامـلـةـ، إـنـ حـصـلـ اـتـفـاقـ دـولـيـ عـلـىـ طـرـدـهـمـ مـنـ سـوـرـياـ، أـوـ تـحـجـيمـ هـيـمـنـتـهـمـ الـوـاسـعـةـ عـلـيـهـاـ.

إـنـ صـحـتـ هـذـهـ القرـاءـةـ، فـهـيـ تـفـتـحـ الـبـابـ أـمـاـمـ اـحـتمـالـيـنـ رـئـيـسـيـنـ فـيـ سـوـرـياـ. الـأـولـ، أـنـ تـخـشـيـ إـسـرـائـيلـ، تـحـديـداًـ، مـنـ الـفـوـضـىـ وـإـشـعـالـ جـبـهـتـهـ الـشـمـالـيـةـ، مـعـ الإـيـرـانـيـنـ، فـيـ الـجـوـلـانـ، وـكـذـلـكـ فـيـ جـنـوبـ لـبـنـانـ، فـتـفـضـلـ الـوـصـولـ إـلـىـ تـفـاهـمـاتـ مـعـ طـهـرـانـ، بـالـوـكـالـةـ، عـبـرـ الـرـوـسـ. مـاـ يـعـنـىـ إـقـرـارـاًـ بـالـهـيـمـنـةـ الإـيـرـانـيـةـ الـوـاسـعـةـ عـلـىـ سـوـرـياـ، فـيـ أـيـ اـتـفـاقـ تـسـوـيـةـ مـسـتـقـبـلـيـ بـيـنـ الـمـتـصـارـعـيـنـ عـلـىـ تـرـابـهـاـ.

أما الاحتمال الثاني، أن ترد إسرائيل على تغيير قواعد اللعبة من الجانب الإيراني، وفق سيناريوهين، الأول، أن تضغط على الأمريكيين للعودة باتجاه تفعيل دعمهم للمعارضة السورية المسلحة، وإعادة إحياء سيناريو استنزاف الإيرانيين والنظام في سوريا. وهو السيناريو الأرجح، لأنه يقلل من احتمالات تهديد أمن الشمال في فلسطين المحتلة. فيما السيناريو الثاني يذهب باتجاه أن تُفَاقِم إسرائيل من استهدافها للمنشآت الإيرانية وتلك التابعة للنظام في سوريا، في مواجهة تهدد بحرب شاملة.

رد الفعل الإسرائيلي الأولي على إسقاط طائرتهم، يوحي بأن الإسرائيليين لن يذهبوا باتجاه مواجهة شاملة مع الإيرانيين، وأنهم إن أرادوا الرد، فسيراهنون على الرد بأسلوب استنزاف نظام الأسد وحلفائه، بتفعيل دعم المعارضة. أو أن يقبلوا، بمرارة، بالهيمنة الإيرانية على سوريا، كما خضعوا على مضض لتلك الهيمنة في الحالة اللبنانية.

المصادر:

المدن